مفهوم المعرفة من خلال رسائل النور
لبديع الزمان سعيد النُورْسي

أ. مصطفى فوضيل [Ψ]

مقدمة

إن البحث في مفهوم المعرفة بحث في عمق الإنسان، واقعا وتاريخا. إذ هذا المفهوم هو الذي تأسست عليه إنسانية الإنسان منذ وجد، وظل ملازما له وسيظل، ولذلك حظي بالعناية سواء على مستوى الوحي النازل أو على مستوى الدراسات والتأملات البشرية المختلفة.

فالبحث فيه إذن بحث في جوهر الإنسان! وبطبيعة الحال فإن مفهوما بهذه القيمة والقوة يشد إليه منظومة من المفاهيم والقضايا، ويرتبط بها تأثرا وتأثيرا.

إن شعور الباحث هذا تجاه مفهوم المعرفة قد تبلور من خلال الاطلاع على النصوص المعالجة له مما هو مبثوث في رسائل النور للإمام المجدد بديع الزمان سعيد النُورْسي نور الله ضريحه.

والحق أن ما اجتمع لدى الباحث من نصوص المفهوم المستخلصة المستخرجة، قد جعله على تمام اليقين أن الأمر أكبر مما كان يتصور، وأن البحث في هذا المفهوم -كي يستوي على سوقه- يستلزم مساحة أوسع وزمانا أطول، وذلك للأسباب الآتية:

أن الإمام النُورْسي بنى منهجه في رسائل النور على حقائق القرآن الكريم، واعتبر مرارا أن بحثه في المفاهيم مستخلص من مشكاة الوحي باعتباره علما مستقلا بذاته، ومنهجا شامخ الأركان قائما بنفسه، ولا شك أن هذا الأمر الجليل يستدعي مزيدا من التدقيق والاحتياط.

Ψ ولد سنة 1962 في مدينة فاس – المغرب.أنهى شهادة الماجستير سنة 1992 . له مقالات تفوق العشرين حول القرآن الكريم.
حاليا أستاذ في معهد الدراسات المصطلحية جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب-ظهر المهراز-فاس-المغرب.

أنه – في كثير من الأحيان – يكتفي بالإشارة عن العبارة، فيتطلب كلامه كثيرا من التأمل. وكما قال الدكتور محسن عبد الحميد: "فإن أسلوب رسائل النور نراه لينا رقيقا جدا، حتى تكاد تشعر أنه همسات قلب، أو أنفاس رقيقة، ونراه أحيانا أخرى أسلوبا علميا دقيقا ذا عبارات منطقية فطرية تستدعي تركيزا فكريا، وينقلب الأسلوب في حالة الدفاع أمام المحاكم إلى أسلوب قوي هادر كالأمواج المتلاطمة"[1].

– أن لغته الخاصة ومعجمه الاصطلاحي المتميز مما يستلزم الحذر من إسقاط عدد من المفاهيم على أفكاره وآراءه. ويلاحظ في أسلوب النُورْسي حرصه الشديد على التعبير – عن أفكاره ومفاهيمه – بألفاظ القرآن وعباراته، وهو – وإن كان يستعمل ألفاظا ومصطلحات نشأت بعد مرحلة التنزيل أي في أحضان العلوم الإسلامية – إلا أنه يحيطها بسياج من لغة القرآن الكريم، وقد ساعد هذا المنهج على تخفيف الحدة المصطلحية الزمنية المرتبطة ببعض المصطلحات التي ترجع في أصلها إلى مرجعية أخرى (غير إسلامية).

– أنه عرض مفهوم المعرفة ضمن شبكة من المعاني والمفاهيم والقضايا التي تخدم ذلك المفهوم وتتبادل معه التأثر والتأثير. كما أنه بحثه في امتداده التاريخي وواقعه الآني وآفاقه المستقبلية، ودخل في مناقشات ساخنة مع المخالف الذي انحرف بدلالة المفهوم نتيجة لسوء الفهم، والمضاد الذي انحرف بها إلى جهة الضلال نتيجة لسوء القصد وفساد التفكير وضيق الأفق.

– أنه كان يرى قضية المعرفة من أهم القضايا المركزية في رؤيته التجديدية. وقد اتضح وتأكد عنده أن معالجتها هي المدخل الطبيعي لإعادة التوازن إلى شخصية الأمة ونفض الركام الذي غطى حقيقتها وشوهها وجعلها مثار سخرية لأعداء الدين. وفي هذا السياق كانت جهوده في إعادة تأسيس المفهوم وبيان أبعاده العظيمة. يقول: "إن الذي دفعني وشجعني إلى مبارزة أفكار العصور الخوالي، والتصدي للخيالات والأوهام التي تقوت واحتشدت منذ مئات السنين.. هو اعتقادي ويقيني بأن الحق سينمو نمو البذرة النابتة، وإن تسترت تحت التراب، وأن أهله سينتصرون وإن كانوا قلة وضعفاء بظلم الأحوال. واعتقادي أن حقيقة الإسلام هي التي ستسود قارات العالم وتستولي عليها.. نعم إن الإسلام هو الذي سيعتلي عرش الحقائق والمعارف، فلا يكشفها ولا يفتحها إلا الإسلام.. الأمارات تبدو هكذا..

... نعم إن أعظم سبب سلب منا الراحة في الدنيا وحرم الأجانب من سعادة الآخرة وحجب شمس الإسلام وكسفها هو سوء الفهم وتوهم مناقضة الإسلام ومخالفته لحقائق

العلوم. فيا للعجب! كيف يكون العبد عدو سيده.. وكيف يعارض الابن والده!! فالإسلام سيد العلوم ومرشدها ورئيس العلوم الحقة ووالدها. ولكن، يا للأسف.. هذا الفهم الخاطئ.. الباطل قد أجرى حكمه إلى الوقت الحاضر فألقى بشبهاته في النفوس، وأوصد أبواب المدنية والمعرفة".[2]

وقد ظهر بعد كل هذا أنه – بحسب الفرصة المتاحة – يمكن نسج رؤية عامة عن مفهوم المعرفة كما دار في رسائل النور، ونسق دلالاته بخيط منهجي جامع، فخلص الباحث إلى المحاور الآتية:

تعريف المعرفة.
المعرفة الإيمانية.
أصل المعرفة.
خصائص المعرفة.
جامعية الإنسان (الذات العارفة)
المعرفة الإيمانية.
غايات المعرفة.
إمكان المعرفة.
أقسام المعرفة.

مصادر المعرفة وطرقها:
أولا: الوحي،
الحاجة إلى النبوة،
دلائل صدق النبي صلى الله عليه وسلم،
القرآن الكريم: (تعريف القرآن، إعجاز القرآن، طريقة القرآن في المعرفة، بين القرآن والعلوم الإسلامية، بين القرآن والفلسفة)
ثانيا: الكون: (بين القرآن والعلوم الكونية)
ثالثا: العقل.
رابعا: الإلهام.
خاتمة.

تعريف المعرفة :

"لا تخرج المعرفة عند النُوْرْسي عن واحدة من ثلاثة:

معرفة كونية تشمل علوم ما في السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى.

معرفة إنسانية تشمل الكينونة الإنسانية وكل ما يتعلق بالإنسان فردا ونوعا ظـاهرا وباطنا.

ومعرفة إلهية ترتبط بوجود الله تعالى وبربوبيته، وشؤونه في خلقه.

وكلها يفضي بعضها إلى بعض، والعلاقة بينها علاقة تلازم وتكامل.

وبعبارة أخرى فإن المعرفة الحقة لا تخرج عنده عن معرفة الله تعالى، وهـي المعرفـة الإيمانية، وكل ما عداها داخل فيها قطعا، فمعرفة الإنسان، ومعرفة الكون، والحياة، كل أولئك وسائل تقود إليها".[3]

المعرفة الإيمانية :

والمعرفة في اصطلاح النُوْرْسي ليست مجردة في الخيال ولا محلقة في الهواء بدون معنى. بل تأخذ دلالة محددة من خلال إضافتها إلى الله تعالى، فتصبح ضميمة اصـطلاحية، أي مصطلحا قائما بنفسه له دلالته الخاصة وعلاقاته في النسق الذي يحتويه. يقول: "اعلـم يقينا أن أسمى غاية للخلق، وأعظم نتيجة للفطرة الإنسانية.. هو الإيمان بالله، واعلـم أن أعلى مرتبة للإنسانية وأفضل مقام للبشرية.. هو معرفة الله التي في ذلك الإيمان.. واعلم أن أزهى سعادة للإنس والجن وأحلى نعمة.. هو محبة الله النابعة من تلك المعرفة.. واعلم أن أصفى سرور لروح الإنسان وأنقى بهجة لقلبه هو اللذة الروحية المترشحة من تلـك المحبة"[4]

في هذا النص يرسم النُوْرْسي موقع معرفة الله تعالى في بنية الحياة الإسلامية للإنسان. والنص يقرر ضمنيا أنه لا يتصور "الإنسان" في غياب أربعة أمور:

غاية تعطي لوجوده معنى.

موقع لائق في الكون.

سعادة وطمأنينة تلبي حاجته الوجدانية.

متعة صافية تجيب الأشواق.

فهذه الأمور الأربعة مركوزة في فطرة الإنسان، وهي تستقي مضمونها الحقيقي مـن ماء الوحي النازل من عند الله تعالى، وتأخذ قوتها من الحبل الموصول به جل وعلا.

وبالتـــأمل في النص نجد للمعرفة موقعا خاصا، بدلالة قصر الكلام في الفقرتين الثانية والثالثة عليها وعلى المحبة. وهذا يعني أنه لا يتصور إيمان بدون معرفة، كما لا تتصـــور معرفة إذا لم تنبع منها المحبة.

وقول الإمام النُورْسي "المعرفة التي في ذلك الإيمان" يقتضي الاندماج والامتزاج حتى إنه ليصعب رسم الحدود بينهما.

ومما يشهد لهذا أنه لما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم حارثة: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت والله مؤمنا حقا، فقال عليه السلام: انظر ماذا تقول، فإن لكـــل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقال عزفت نفسي عن الدنيا، وأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار يتعاوون فيها، فقال عليه الصلاة والسلام: عرفت فالزم، ثم قـــال رســـول الله صلى الله عليه وسلم: من سره أن ينظر إلى رجل نور الله الإيمان في قلبه فلينظر إلى هذا، ثم قال: يا رسول الله، ادع الله لي بالشهادة، فدعا له، فنودي بعد ذلك: يـــا خيـــل الله اركبي، فكان أول فارس ركب، فاستشهد في سبيل الله".[5]

فوصف نفسه بالإيمان، لكن لما وصف إيمانه لرسول الله صلى الله عليه وسلم نعتـــه بالمعرفة فقال عرفت ولم يقل له آمنت. كما أن الحديث واضح في التعبير عن المحبة الـــتي نبعت لحارثة من معرفته حتى قادته – تحت وطأة اللذة الروحية – إلى الاقتحام في لجـــة الموت طلبا للشهادة.

وشبيه بمصطلح المعرفة الإيمانية مصطلح المعارف الإلهية، يقول: "إن النظر إلى ما سواه تعالى لابد أن يكون بالمعنى الحرفي وبحسابه تعالى، وإن النظر إلى الكائنات بالمعنى الاسمي أي بحساب الأسباب خطأ. ففي كل شيء وجهان: وجه إلى الحق، ووجه إلى الكـــون. فالتوجه إلى الكوني لابد أن يكون حرفيا وعنوانا للمعنى الاسمي الذي هو جهة نسبته إليه تعالى. فمثلا: لابد أن يرى النعمة مرآة للإنعام، والوسائط والأسباب مرايـــا لتصـــرف القدرة.. وكذا إن النظر والنية يغيران ماهيات الأشياء، فيقلبان السيئات حسنات. كما يقلب الإكسير التراب ذهبا، كذلك تقلب النية الحركات العادية عبادات، والنظر يقلب علوم الأكوان معارف إلهية.. فإن نظر بحساب الأسباب والوسائط فجهالات، وإن نظر بحساب الله فمعارف إلهية"[6].

والمعرفة بهذا المعنى الشمولي الذي يبتدئ من أصغر شيء وينتهي إلى أعظم موجـــود، تتميز بخصائص وصفات تمنح لها شخصيتها الإسلامية المستقلة.

أصل المعرفة :

"إن القرآن الكريم يتميز في أول قضية يعرضها فيتحدث عن الوجود والمعرفة ويجعلهما دائرين حول مفهوم الخالقية والمخلوقية"[7] ومن هنا يأتي التعليم والمعرفة إثر الخلق. يقول الإمام النُورْسي: "(**وعلم آدم الأسماء كلها**) [البقرة: 31] أي صوره بفطرة تضمنت مبادئ أنواع الكمالات، وخلقه باستعداد زرع فيه أنواع المعالي وجهزه بالحواس العشر، وبوجدان تتمثل فيه الموجودات، وأعده بهذه الثلاث لتعلم حقائق الأشياء بأنواعها ثم علمه الأسماء كلها".[8]

خصائص المعرفة :

من هذه الخصائص:

1- توجهها إلى الله تعالى الذي له الكمال المطلق التام، وله الأسماء الحسنى. "إن لكل كمال وعلم وتقدم وفن حقيقة سامية تستند إلى اسم من أسماء الله الحسنى، وفي هذا الاستناد يجد كل منها كماله، ويصبح حقيقة فعلا، وإلا فهو ظل باهت ناقص مبتور مشوش.[9]

2- وهذه الأسماء تتضمن صفات معرفة بالخالق جل جلاله، وكما انها تعرف بالذات العلية فهي تعرف بتجلياتها في كل ما سواه من الموجودات، إذ هي داخلة ضمن أفعاله جل وعلا.

3- توجهها إلى الكمال الإنساني -بانسجامها مع خصائص الذات العارفة- وذلك بمراعاة حاجاتها التابعة لتكوينها البديع. فالإنسان "جبل على محبة غير متناهية لخالق الكون، وذلك لأن الفطرة البشرية تكن حبا للجمال وودا بالكمال وافتتانا بالإحسان وتتزايد المحبة بحسب درجات الجمال والكمال والإحسان حتى تصل إلى أقصى درجات العشق ومنتهاه. نعم إن في القلب الصغير لهذا الإنسان يستقر عشق بكبر الكون، إذ إن نقل محتويات ما في مكتبة كبيرة من كتب وخزنها في القوة الحافظة للقلب – وهي بحجم حبة عدس – يبين أن قلب الإنسان يمكنه أن يضم الكون ويستطيع أن يحمل حبا بقدر الكون. فما دامت الفطرة البشرية تملك استعدادا غير محدود للمحبة تجاه الإحسان والجمال والكمال.. وأن لخالق الكون جمالا مقدسا غير متناه، ثبوته متحقق بداهة بآثاره الظاهرة في الكائنات.. وأن له كمالا قدسيا لا حدود له، ثبوته متحقق ضرورة بنقوش صنعته الظاهرة في الموجودات.. وأن له إحسانا غير محدود ثابت الوجود يقينا، يمكن لمسه ومشاهدته ضمن إنعامه وآلائه الظاهرة في جميع أنواع الأحياء.. فلابد أنه سبحانه

يطلب محبة لا حد لها من الإنسان الذي هو أجمع ذوي الشعور صفة، وأكثرهم حاجة، وأعظمهم تفكرا، وأشدهم شوقا إليه"[10]

وكما "أن الإنسان عالم صغير كذلك العالم إنسان كبير، فهذا الإنسان يمثّل خلاصة الإنسان الكبير وفهرسته، فالنماذج المصغرة في الإنسان لابد أن أصولها الكبيرة المعظمة موجودة في الإنسان الأكبر بالضرورة. فمثلا إن وجود القوة الحافظة في الإنسان دليل قطعي على وجود اللوح المحفوظ في العالم"[11]

ويصطلح على هذا الاتساع في الإنسان بعبارة: "جامعية الإنسان" التي لأجلها يشعر (الحي القيوم) الإنسانَ بجميع أسمائه الحسنى ويعرّفه بجميع أنواع إحسانه، ويذوقه طعوم آلائه، .. فجعله سبحانه مركزا للكون ومحورا له، بل سخر الكون له فمد أمامه سفرة عظيمة عظم الكون لتتلذذ أنواع معداته المادية والمعنوية"[12]

"إن "جامعية استعداد الإنسان" تخبرنا بأن البشر ثمرة شجرة الخلقة، فيكون أكملَ وأبعدَ، فوجهه الشفاف متوجه إلى الظلمة وفضاء العدم الذي هو باطن الدنيا. وما في جامعية الاستعداد من قابلية العبادة تخبرنا بأن الإنسان ما خلق هكذا ليكون منكوس الرأس يخلد إلى الفاني، بل قابلية العبادة لصرف وجهه الشفاف من الظلمة إلى النور، ومن فضاء العدم إلى الوجود، ومن المنتهى إلى المبتدأ، ومن الفاني إلى الباقي، ومن الخلق إلى الحق. كأن العبادة حلقة اتصال بين المنتهى والمبدأ في دائرة الخلقة. فتشهد الفطرة بهذا اللسان على وجوب وجود من خلق الخلق ليعرف وخلق الجن والإنس ليعبد." [13]

ويدقق النُوْرْسي في تحليل المكونات المعنوية للإنسان، فيفصلها إلى ما أسماه اللطائف. وهو يرى "أن لطائف كثيرة مندرجة في ماهية الإنسان الجامعة وفي استعداده للحياة، إلا أن عشرا منها قد اشتهرت حتى أن الحكماء والعلماء الظاهريين أيضا قد جعلوا تلك اللطائف العشر أساسا لحكمتهم في صورة أخرى، حيث قالوا إن الحواس الخمس الظاهرة نوافذ أو نماذج لحواس خمس باطنة. حتى أن ما اشتهر لدى العوام والخواص من لطائف الإنسان العشر منسجمة مع اللطائف العشر لدى أرباب الطرق الصوفية. فمثلا: الوجدان والأعصاب والحس والعقل والهوى والقوة الشهوية والقوة الغضبية، إذا ما ألحقت هذه اللطائف بالقلب والروح والسر تظهر اللطائف العشر في صورة أخرى. وهناك لطائف أخرى كثيرة غير هذه اللطائف أمثال السائقة والشائقة، الحس قبل الوقوع.." [14]

"وقد أودع البارئ سبحانه في ماهيتك أجهزة ولطائف معنوية دقيقة، إذا ابتلع بعضها الدنيا فلا يشبع، ويضيق بعضها ذرعا عن ذرة ولا يتحمل شعيرة – كالعين التي لا

تتحمل شعرة والرأس الذي يتحمل أثقالا هائلة، فتلك اللطيفة لا تتحمل ثقلا كالشعرة الدقيقة، أي لا تتحمل حالة هينة جدا نشأت من الضلالة ونجمت من الغفلة، بل قد تنطفئ جذوتها وتموت. فاحذر وخفف الوطء وخف من الغرق فيغرق معك ألطف لطائفك التي تبتلع الدنيا في أكلة أو كلمة أو لمعة أو إشارة أو بقلة أو قبلة. فهناك أشياء صغيرة جدا تتمكن – في جهة – أن تستوعب ما هو ضخم جدا. فانظر إن شئت كيف تغرق السماء بنجومها في مرآة صغيرة، وكيف كتب الحق سبحانه في خردلة حافظتك أكثر ما في صحيفة أعمالك وأغلب ما في صحائف أعمارك. فسبحانه من قادر قيوم".[15]

ونستطيع أن نستخلص مفهوم الاكتمال في المعرفة والاطمئنان القلبي الناتج عنه من قوله: "إن الإيمان لا يحصل بالعلم وحده، إذ هناك لطائف كثيرة للإنسان لها حظها من الإيمان، فكما أن الأكل إذا ما دخل المعدة ينقسم ويتوزع إلى مختلف العروق حسب كل عضو من الأعضاء، كذلك المسائل الإيمانية الآتية عن طريق العلم إذا ما دخلت معدة العقل والفهم، فإن كل لطيفة من لطائف الجسم – كالروح والقلب والسر والنفس وأمثالها – تأخذ منها وتمصها بحسب درجاتها. فإن فقدت لطيفة من اللطائف غذاءها المناسب، فالمعرفة إذن ناقصة مبتورة، وتظل تلك اللطيفة محرومة منها".[16]

فكمال المعرفة يكمن في مدى تلبيتها لحاجات الإنسان الإيمانية بحسب مكونات بنيته الداخلية، فيكون تعريف الكمال هنا بالمآل، أي بما تؤول إليه كل معلومة وكل جزئية معرفية في علاقتها بمواقعها التي تستقبلها وتقع فيها.

ونحن نقرأ وراء سطور الإمام أنه ما دام الجانب الغائب في بنية الإنسان متسع الأرجاء فسيح الآفاق عميق الأغوار متداخل العلاقات فإنه لا يتصور منهج يستطيع ارتيادها جميعا إلا إذا كان ذا طبيعة خاصة وهي الإحاطة، وهذه الخصوصية مستحيلة في الإنسان. فإذا كانت الروح – وهي لطيفة واحدة من اللطائف التي ذكرها النُوْرْسي – كما قال تعالى: "**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**" [الإسراء: 85] فكيف بسائر اللطائف الأخرى!. إن الإحاطة شرط ضروري في هذا المقام!! وإن الروح من أمر الله جل وعلا!! وإن القرآن من أمر الله جل وعلا أيضا!! "وكذلك أنزلنا إليك روحا من أمرنا". وقد شبه النُوْرْسي القرآن بالماء مرارا!! فلا شك أن الماء الدفاق النافع والروح المخترق الدافئ يتسرب إلى كل جزء من أجزاء الإنسان ليبله بالحياة. فنخلص إلى أن القرآن الكريم بطبيعته الربانية هو المؤهل الوحيد لتغذية اللطائف الإنسانية، فهو غذاء مكتمل بتناوله تأخذ كل لطيفة حظها منه.

ومن وجوه الكمال هنا أن مميز الإنسان عن الحيوان: "شمول علاقته بالماضي والمستقبل، وكلية إدراكه بالأنفس والآفاق.. وكشفه لترتب العلل الظاهرية في إنشاء

الأشياء الظاهرية. فأعظم وظيفته وأقدمها، وأتم جهازاته وألزمها التسبيح والتحميد بالجهاز المخلوق لهما... وبسر مشاهدته لتسبيحات المخلوقات وشهادته عليها يثني على صانع الأشياء بقراءة أسمائه المكتوبة بالترتيب والترتب في حكمة صنع الأشياء".[17]

4- النزوع إلى الأبد."ألا ترى أن فيك لطيفة لا ترضى إلا بالأبد والأبدي، ولا تتوجه إلا إلى ذلك الخالد، ولا تتنزل لما سواه؟ حتى إذا أعطيت لها الدنيا كلها فلا تطمأن تلك الحاجة الفطرية.. تلك هي سلطان لطائفك ومشاعرك.. فأطع سلطان لطائفك المطيع لأمر فاطره الحكيم جل جلاله، وانج بنفسك"..[18]

إن الإنسان "هو أعظم معجزات القدرة الصمدانية، بل هو أعجوبة الخلق لما انطوى فيه العالم الأكبر ولما تشهد جميع أجهزته بأنه مخلوق للسير قدما نحو الأبدية والخلود"[19] "أجل إن الإنسان مخلوق للأبد فإنما تحصل له اللذة الحقيقية في الأمور الأبدية كالمعرفة الإلهية والمحبة والكمال والعلم وأمثالها"[20].

المعرفة تكليف وتشريف :

وهكذا تأخذ المعرفة أبعادا ضخمة جدا، وقيمة عظيمة في حياة الإنسان وتصبح – بمنظار الحكمة – في حقه تكليفا – وبمنظار الرحمة – في صالحه تشريفا! "نعم إن هذا الإنسان... الذي أنيط به – من بين جميع المخلوقات – مهام عظيمة وزود باستعدادات فطرية كاملة، إن لم يعرف ربه بالإيمان بعد أن عرّف سبحانه نفسه إليه بمخلوقاته البديعة المنتظمة.. وإن لم ينل محبته بالتقرب إليه بالعبادة بعد أن تحبب إليه سبحانه بنفسه وعرّفها إليه بما خلق له من الثمار المتنوعة الجميلة الدالة على رحمته الواسعة.. وإن لم يقم بالتوقير والإجلال اللائقين به بالشكر والحمد بعد أن أظهر سبحانه محبته له ورحمته عليه بنعمه الكثيرة.. نعم، إن لم يعرف هذا الإنسان ربه هكذا فكيف يترك سدى دون جزاء ودون أن يعدّ له ذو العزة والجلال دارا للعقاب؟ وهل من الممكن أن لا يمنح ذلك الرب الرحيم دار ثواب وسعادة أبدية لأولئك المؤمنين الذين قابلوا تعريف ذاته سبحانه لهم بمعرفتهم إياه بالإيمان ومحبته لهم بالحب والتحبب له بالعبادة ورحمته لهم بالإجلال والتوقير له بالشكر"[21].

غايات المعرفة :

يحرص الإمام النُوْرْسي على تجلية المعرفة بمعناها الإيماني الذي يورده القرآن الكريم ويخاطب به الإنسان باعتباره مخلوقا مكرما متميزا باستعدادات هائلة للتلقي والاستيعاب، ومن هنا تتحدد غاية المعرفة العميقة والنهائية في تحقيق العبودية لله تعالى. هذه الغاية هي

التي تعطي للإنسان معنى في الوجود، ممتدا في الماضي البعيد مع قصة آدم، ومتواصلا مع المستقبل بيقينه القوي في الآخرة. يقول متأملا في قوله تعالى: "**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**" (الذاريات:56): "يفهم من أسرار هذه الآية الجليلة أن حكمة مجيء الإنسان إلى هذه الدنيا والغاية منه هي: معرفة خالق الكون سبحانه، والإيمان به، والقيام بعبادته. كما أن وظيفة فطرته وفريضة ذمته هي معرفة الله والإيمان به، والتصديق بوجوده وبوحدانيته إذعانا ويقينا. نعم، هذا الإنسان الضعيف الذي ينشد فطرة الحياة الدائمة الخالدة، والعيش الأبدي الرغيد ، والذي له آمال بلا حدود وآلام بلا نهاية، لابد أن تكون جميع الأشياء والكمالات هابطة بالنسبة إليه، بل ليس لأكثرها أية قيمة تذكر، ما عدا الإيمان بالله ومعرفته، وما عدا الوسائل التي تأخذ بيده إلى ذلك الإيمان الذي هو أس الأساس لتلك الحياة الأبدية ومفتاحها"[22].

والعبادة بهذه الدلالة الشمولية تتحقق بمختلف أنشطة الإنسان وحركاته وسكناته، وهذا الحد لا يترك مجالا لتسرب شبهة إهمال العلوم وأمور المعاش ومصالح العالم، إذ كل ذلك يأخذ موقعه النافع في نسق العبادة. ومن هنا تصحيح النُوْرْسي لكثيرمن الأوهام .

إمكان المعرفة :

لقد سبق أن رأينا كيف ينظر الأستاذ النُوْرْسي إلى الإنسان من خلال نور القرآن الكريم، حيث بين أن هذا المخلوق المكرم المزود بطاقات هائلة ولطائف كثيرة أخصها العقل والقلب، ورأينا كيف صارت المعرفة بالنسبة للإنسان مكلفا بها لا مجرد ممكنة فقط ومن هنا يشن هجومه على من أنكروا المعارف: "إن هؤلاء الفلاسفة الذين لم يتسن لهم النظر إلى الموجودات بنور القرآن المبين، عندما نظروا إليها بمنظار "الطبيعة" و"الأسباب" توصلوا إلى أن وجود هذه الموجودات، وافتراض تشكلها بعوامل "الطبيعة" و"الأسباب" مسألة تطرح مشكلات عويصة بدرجة الامتناع – على غرار ما ذكرناه في بيان الاحتمالات ومحالاتها – فانقسم هؤلاء الفلاسفة إزاء هذه العقبة الكأداء إلى قسمين:

قسم منهم صاروا سوفسطائيين وعافوا العقل الذي هو خاصة الإنسان وسقطوا إلى درك أدنى من الحيوانات، إذ وصل بهم أمر فكرهم إلى إنكار الوجود عموما، بل حتى إنكار وجودهم، وذلك عندما رأوا أن هذا الإنكار أجدى على العقل وأيسر عليه وأسلم من تصور "الطبيعة" و"الأسباب" مالكة لزمام الإيجاد، فأنكروا وجود أنفسهم ووجود الموجودات جميعا، فسقطوا في هاوية الجهل المطلق.

أما القسم الثاني : فقد نظروا إلى الموجودات أنها لو سلم إيجادهـا إلى "الأسـباب" و"الطبيعة" كما هو شأن أهل الضلالة فإن إيجاد شيء صغير جدا كالبعوضة والبذرة فيه من المشكلات ما لا يحد، ويقتضي قدرة عظيمة لا يبلغ مداها العقل، فوجدوا أنفسـهم مضطرين إلى إنكار "الإيجاد" نفسه ، فقالوا : "لا يستحدث شيء من العـدم" ورأوا أن إعدام الشيء محال أيضا فقرروا أنه "لا يفنى الموجود". وتخيلوا جملـة مـن الأوضـاع الاعتبارية سارية ما بين تحليل وتركيب وتفريق وتجميع، ناتجة عن حركـات الـذرات، وسيل المصادفات!

فتأمل في هؤلاء الذين يظنون أنفسهم في ذروة العقل، قد سقطوا في حضيض مـن الحماقة والجهل، واعلم من هذا كيف تضع الضلالة هذا الإنسان المكرم – حين يلغـي إيمانه – موضع سخرية وازدراء من كل أحد...

وبدورنا نسأل هؤلاء:

ترى كيف يمكن استبعاد إيجاد شيء ما من القدرة المطلقة التي توجد علـى سـطح الأرض في كل سنة أربعمائة ألف من الأحياء؟ والتي خلقت السماوات والأرض في ستة أيام؟ والتي تنشئ في كل ربيع تحت بصر الإنسان وسمعه، على سطح الأرض كونا حيـا من النبات والحيوان هو أظهر إتقانا وأجلى حكمة من الكون كله ، في سـتة أسـابيع؟ كيف يستبعد منها أن تخلق الموجودات العلمية – التي تعينت خططها ومقاديرها ضـمن دائرة العلم الأزلي – فتخلقها بسهولة مطلقة سهولة إظهار الكتابة غير المنظورة بـإمرار مادة كيمياوية عليها. فاستبعاد إضفاء الوجود الخارجي على الموجودات العلمية – والتي هي معدومات خارجيا – من تلك القدرة الأزلية ، ثم إنكار الإيجاد نفسه لهـو حماقـة وجهالة أشد من حماقة السوفسطائيين المعروفين وجهالتهم"![23].

"إن مما ورط الظاهرين، بل السبب الأول الذي دفعهم إلى القلق والتـردد، هـو: التباس الإمكانات بالوقوعات، والخلط بينهما. فيقولون مثلا: إذا كان الشيء هكذا، فهو ممكن في القدرة الإلهية، وهو أدل على عظمته تعالى في عقولنـا، فهـو إذا واقـع!... هيهات! أيها المسكين! أين عقولكم من أن تكون مهندسة الكون؟ فانتم عاجزون عن أن تحيطوا بالحسن الكلي بعقلكم الجزئي هذا ! لو كان أنف بطول ذراع من ذهب ربمـا يستحسنه من حصر فيه النظر!!

ثم إن الذي حيرهم، هو توهمهم منافاة الإمكان الذاتي لليقين العلمي، فيتقربـون إلى مذهب ''اللاأدرية" بترددهم وتشككهم في العلوم العادية اليقينية. بل لا يخجلـون، إذ يلزم مسكلهم هذا أن يتشكك الإنسان في أمور بديهية كوجود بحـيرة ''وان" وجبـل

''سبحان" لأن هذا ممكن في مسكلهم، أي أن تنقلب بحيرة ''وان" إلى دبس، وينقلب جبل ''سبحان" إلى عسل مغطى بالسكر !! أو انهما يذهبان إلى بحر العدم – كقسم من أصدقائنا الذين لم يرضوا بكروية الأرض فسافروا فزلت أقدامهم – بمعنى : يلزم عدم التصديق بالحال السابقة للبحيرة والجبل !!.

أيها المحرمون من المنطق ! أين أنتم ؟ تأملوا ! فقد تقرر في علم المنطق: أن الوهميات التي في المحسوسات، من البديهيات فإن أنكرتم هذه البداهة، فليس لي إلا أن أقدم لكم التعازي بدل النصائح، بموت العلوم العادية بينما السفسطة قد بعثت لديكم.

البلاء الرابع: الذي شوش أهل الظاهر هو: التباس الإمكان الوهمي بالإمكان العقلي. علما أن الإمكان الوهمي متولد من عرق التقليد، لا من أساس. وهو الذي يولد السفطسة، وحيث لا دليل له، يفتح في البديهيات طريقا إلى الشك والاحتمال والظن، هذا الإمكان الوهمي غالبا ما ينتج من عدم المحاكمة العقلية، ومن ضعف عصبي قلبي، ومن مرض عصبي عقلي، ومن عدم تصور الموضوع والمحمول. بينما الإمكان العقلي هو تردد في أمر لا يظفر بدليل قطعي على وجوده وعدمه ما لم يكن واجبا ولا ممتنعا. فإن كان الإمكان ناشئا عن دليل فهو مقبول وإلا فلا اعتبار له.

ومن أحكام الإمكان الوهمي هذا: أن قسما من المتشككين يقولون ربما لا يكون الأمر على ما أظهره البرهان ، لأن العقل لا يستطيع أن يدرك كل شيء. وعقلنا يعطي لنا هذا الاحتمال. نعم... لا... بل الذي يعطيكم هذا الاحتمال هو شككم ووهمكم. لأن العقل من شانه المضي على برهان.

صحيح أن العقل لا يتمكن أن يدرك ويوازن كل شيء ، ولكن مثل هذه الماديات ولا سيما ما لا يفلت من البصر مهما كان صغيرا فإنه يزنه ويدركه. ولو لم نتمكن من دركه نكون في تلك المسألة غير مكلفين ، كالأطفال.." [24].

وإزاء هذا الإفراط في التردد والتشكك يقف الإمام النُوْرْسي عند مسألة الوساوس التي تعرض للمؤمن، ويضعها في سياقي الموضوعي الطبيعي، فيبين أنها لا تضر ما دام الأساس مبنيا على اليقين، وإدراك المشكل بهذا المستوى يخفف عن المؤمن ما يجده من المعاناة في هذا المجال.

"إن اخطر دسائس الشيطان هو أنه يلبس على بعض ذوي القلوب الصافية والحس المرهف: تخيل الكفر بتصديق الكفر، ويظهر لهم تصور الضلالة تصديقا للضلالة نفسها، ويجلب إلى خيالهم خواطر قبيحة في حق الأشخاص والأمور المنـزهة المقدسة، ويوهمهم بالشك في بعض يقينيات الإيمان بجعل الإمكان الذاتي في صورة الإمكان العقلي. وعندئذ

يظن هذا المسكين المرهف الحس أنه قد هوى في الكفر والضلالة، ويتوهم أنه قــد زال يقينه الإيماني، فيقع في اليأس والقنوط. ويكون بيأسه هذا أضحوكة للشيطان الذي ينفث في يأسه القاتل، ويضرب دوما على وتره الحساس، وينفخ في التباساته ويثيرها، فأما أن يخل بأعصابه وعقله، أو يدفعه إلى هاوية الضلالة.

وقد بحثنا في بعض الرسائل مدى تفاهة هذه الهمزات والوساوس، وكيف أنها لا سند لها ولا أساس، أما هنا فنسجملها بما يأتي:

كما أن صورة الحية في المرآة لا تلدغ، وانعكاس النار فيها لا يحرق، وظل الــنجس فيها لا ينجس، كذلك ما ينعكس على مرآة الخيال أو الفكر من صور الكفر والشرك، وظلال الضلالة، وخيالات الكلمات النابية والشتم، لا تفسد العقيدة ... والــيقين ولا تيغير الإيمان، ولا تثلم أدب التوقير والاحترام. ذلك لأنه من القواعد المقررة: " تخيــل الشتم ليس شتما ، وتخيل الكفر ليس كفرا، وتصور الضلالة ليس ضلالة".

أما مسألة الشك في الإيمان، فإن الاحتمالات الناشئة من " الإمكان الذاتي" لا ينافي اليقين ولا يخل به. إذ من الواعد المقررة في علم أصول الدين: " أن الإمكان الــذاتي لا ينتفي اليقين العلمي".

فمثلا: نحن على يقين من أن بحيرة "بارلا" مملوءة بالماء ومستقرة في مكانها ، إلا أن يمكن أن تخسف في هذه اللحظة. فهذا إمكان ذاتي واحتمال، وهو من الممكنات. ولكن لأنه لم ينشأ من أمارة، أو دليل، فلا يكون "إمكانا ذهنيا" حتى يوجــب الشــك. لأن القاعدة المقررة في علم أصول الدين أنه: "لا عبرة للاحتمال غير الناشئ عــن دليــل". بمعنى: لا يكون الاحتمال الذاتي الذي لم ينشأ عن أمارة أمكانا ذهنيا، فلا أهمية له كــي يوجب الشك. فبمثل هذه الإمكانات والاحتمالات الذاتية يظن المسكين المبتلى أنه قــد فقد يقينه بالحقائق الإيمانية. فيخطر بباله مثلا خواطر كثيرة من الإمكان الذاتي من جهة بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا شك أنها لا تخل بيقينه وجزئه الإيماني، لكن ظنه أن هذا يضر هو الذي يسبب له الضرر.

وأحيانا أخرى تلقي لمة الشيطان – التي هي على القلب – كلاما لا يليق بجــلال الله سبحانه وتعالى. فيظن صاحبه أن قلبه هو الذي فسد فصدر عنه هذا الكلام، فيضطرب ويتألم. والحال أن اضطرابه وخوفه وعدم رضاه دليل على أن تلك الكلمــات لم تكــن صادرة من قلبه، وإنما هي من اللمة الشيطانية، أو أن الشيطان يخيلها إليه ويذكره بها.

وكذلك فإن من بين اللطائف الإنسانية – وهي بضع لطائف لم استطع تشخيصها – ما لا ترضخ للإدارة والاختيار، ولا تدخل تحت وطأة المســؤولية – فتــتحكم أحيانــا وتسيطر دون أن تنصت لنداء الحق ، وتلج في أمور خاطئة، وعندئذ يلقي الشــيطان في

روع هذا الإنسان المبتلى: أن فطرتك فاسدة لا تنسجم مع الإيمان والحق، ألا ترى أنها تلج بلا إرادة في مثل هذه الأمور الباطلة؟ إذن فقد حكم عليك قدرك بالتعاسة وقضى عليك بالشقاء!!. فيهلك ذلك المسكين في هذا اليأس المدمر.

وهكذا فإن حصن المؤمن الحصين من الدسائس الشيطانية المتقدمة هي المحكمات القرآنية والحقائق الإيمانية المرسومة حدودها بدساتير العلماء المحققين والأصفياء الصالحين. أما الدسائس الأخيرة فإنها ترد بالاستعاذة بالله سبحانه وتعالى وبإهمالها، لأن من طبيعة الوساوس أنها تكبر وتتضخم كلما زاد الاهتمام بها. فالسنة المحمدية للمؤمن هي البلسم الشافي لمثل هذه الجرحات الروحية".[25]

أقسام المعرفة :

يقسم النُوْرْسي العلوم من جهة تأثرها بتلاحق الأفكار وتراكم المعلومات إلى قسمين:

1- قسم من العلوم هو كرفع الصخر، بحاجة إلى التعاون وتلاحق الأفكار. وأغلب هذا القسم هو من العلوم المادية.

2- وقسم تكمله دفعي أو شبيه الدفعي وأغلب هذا القسم هو من المعنويات ومن العلوم الإلهية. ولكن على الرغم من أن تلاحق الأفكار لا يغير ماهية هذا القسم الثاني ولا يكمله ولا يزيده إلا أنه يفيض وضوحا وظهورا وقوة في مسالك براهينه"[26].

ويقسمه من جهة أخرى إلى نظري وضروري وكسبي. ويشير في هذا المقام إشارة لطيفة إلى أهمية النظر في التصور الإسلامي، وأنه مقصود في التكليف. يقول: "إن إظهار الخوارق ما هو إلا تصديق النبوة، والتصديق يحصل على أكمل وجه بمعجزاته الظاهرة، فإذا زادت عن الحاجة، فإما أن تكون عبثا.. أو منافية لسر التكليف -الذي هو امتحان في الأمور النظرية دون البديهيات أو ما يقرب منها حيث يتساوى الأدنى مع الأعلى- أو تكون مخالفة للتسليم والانقياد لجريان الحكمة"[27].

مصادر المعرفة وطرقها :

أولا: الوحي :

"إن حقيقة الوحي الإلهي مهيمنة كل حين - بظواهر في غاية الوضوح - على أرجاء عالم الغيب كافة. فتأتي الشهادة لوجوده وتوحيده سبحانه من لدن علام الغيوب. وهي شهادة الوحي والإلهام وهي أقوى بكثير من شهادة الكائنات والمخلوقات؛ إذ لا يدع سبحانه تعريف ذاته ولا دلائل وجوده ووحدانيته محصورا في شهادة مخلوقاته وحدها، بل يتكلم كلاما أزليا يليق بذاته، فلا حد ولا نهاية لكلام من هو حاضر وناظر بقدرته وعلمه في كل مكان. ومثلما يعرفه معنى كلامه فإن تكلمه أيضا يعرفه بصفته.

نعم إن تواتر مائة ألف من الأنبياء عليهم السلام واتفاقهم في جميع إخباراتهم الصادرة من الوحي الإلهي، ودلائل ومعجزات الكتب المقدسة والصحف السماوية التي هي الوحي المشهود وثماره، والتي صدقتها الأكثرية المطلقة للبشرية واقتدت بها واهتدت بهديها..يدل بداهة على أن الوحي حقيقة ثابتة لا مراء فيها"[28].

الحاجة إلى النبوة:

"نعم! ما دام الكون قد خلق لأجل الحياة، وأن الحياة هي أعظم تجل وأكمل نقش وأجمل صنعة للحي القيوم جل جلاله، وما دامت حياته السرمدية الخالدة تظهر وتكشف عن نفسها بإرسال الرسل وإنزال الكتب. إذ لو لم تكن هناك رسل ولا كتب لما عرفت تلك الحياة الأزلية، فكما أن تكلم الفرد يبين حيويته وحياته كذلك الأنبياء والرسل عليهم السلام والكتب المنزلة عليهم، يبينون ويدلون على ذلك المتكلم الحي الذي يأمر وينهى بكلماته وخطاباته من وراء الغيب المحجوب وراء ستار الكون. فلا بد أن الحياة التي في الكون تدل دلالة قاطعة على الحي الأزلي سبحانه وتعالى وعلى وجوب وجوده، كما أن شعاعات الحياة الأزلية كذلك وتجلياتها تنظر وتتوجه إلى ما لها ارتباطات وعلاقات معها من أركان الإيمان مثل (إرسال الرسل) و(إنزال الكتب) وتثبتهما رمزا، ولا سيما (الرسالة المحمدية) و(الوحي القرآني) إذ يصح القول: إنهما ثابتان قاطعان كقطعية ثبوت الحياة حيث إنهما بمثابة الروح والعقل والحياة.[29]

إن "إدراك الإنسان وكشفه عن الترتيب في الأشياء الناشئ من العلل المترتبة المتسلسلة في الحلقة.. وقابليته العلمية والتركيبية ومعرفته الحاصلة من تحليله مركبات بذور كمالات الإنسانية إلى بسيطات وإرجاعها إلى أصلها.. وقدرته على محاكاة الطبيعة ومساوقة نواميس الله الجارية في الكون بصنعته ومهارته، بالسر الكامن في القاعدة: (بداية الفكر نهاية العمل، نهاية الفكر بداية العمل). فالإنسان الذي هذه قابلياته يدرك قصور نظره في صنعته، وزحمة الأوهام عليه، وافتقاره في جبلته الإنسانية.. مما يدله على حاجته الماسة إلى نبي مرشد يحافظ على موازنة النظام المتقن في العالم"[30].

دلائل صدق النبي صلى الله عليه وسلم:

يشير النُورْسي إلى أن هذه الدلائل لا تحصى، ولكنه خلص إلى تسع منها:

1- اتصافه صلى الله عليه وسلم بجميع السجايا الفاضلة حتى شهد لها غرماؤه.. وظهور مئات المعجزات منه.. ومن كان كذلك فلا جرم أنه صاحب أصدق حديث..

2- كون القرآن الذي بين يديه صلى الله عليه وسلم معجزا... والأمين على كلام الله، والمترجم الفعلى له، والمبلغ لهذا النبأ العظيم إلى الناس كافة، وهو الحق بعينه، لا يمكن أن يصدر منه كذب قط، ولن يكون موضع شبهة أبدا.

3- أنه صلى الله عليه وسلم قد بعث بشريعة مطهرة، وبدين فطري، وبعبودية خالصة، وبدعاء خاشع، وبدعوة شاملة، وبإيمان راسخ، لا مثيل لما بعث به ولن يكون، وما وجد أكمل منه ولن يوجد.

4- إجماع الأنبياء عليهم السلام واتفاقهم على الحقائق الإيمانية نفسها هو دليل قاطع على وجود الله سبحانه وعلى وحدانيته، وهو شهادة صادقة أيضا على صدق هذا النبي صلى الله عليه وسلم وعلى رسالته.

5- أن وصول آلآف الأولياء إلى الحق والحقيقة وما نالوا من الكمالات والكرامات.. ليس إلا بالاقتداء بهدي دساتير هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وبتربيته وباتباعه.

6- أن ملايين العلماء المدققين الأصفياء.. ودهاة الحكماء المؤمنين، بفضل ما درسوا وتتلمذوا على ما جاء به هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم - مع كونه أميا - من الحقائق القدسية، وما نبع منها من العلوم العالية، وما كشفت عنه من المعرفة الإلهية.. إن هؤلاء جميعا مثلما يثبتون الوحدانية التي هي الأساس لدعوته صلى الله عليه وسلم ويصدقونها متفقين - ببراهينهم القاطعة - فإنهم يتفقون كذلك ويشهدون على صدق هذا المعلم الأكبر وصواب هذا الأستاذ الأعظم وعلى أحقية كلامه صلىالله عليه وسلم.

7- أن الجمع العظيم الذين يطلق عليهم (الآل والأصحاب) هم أشهر بني البشر بعد الأنبياء فراسةً وأكثرهم درايةً وأسماهم كمالات وأفضلهم منزلة وأعلاهم صيتا وأشدهم اعتصاما بالدين واحدهم نظرا"

8- أن هذا الكون يدل على صانعه وكاتبه .. الذي يتصرف فيه بالتصوير والتقدير والتدبير.. فهو كذلك يستدعي لا محالة وجود من يعبر عما في هذا الكتاب الكبير من معان ويعلم ويعلّم المقاصد الإلهية من وراء خلق الكون، ويعلّم الحكم الربانية في تحولاته وتبدلاته، ويدرّس نتائج حركاته الوظيفية، ويعلن قيمة ماهيته وكمالات ما فيه من الموجودات.

9- ما دام هناك وراء الحجاب من يشهر كمال بديعيته وإتقانه، بمصنوعاته هذه ذات الإتقان والحكمة.. ويعرف نفسه ويوددها، بمخلوقاته غير المحدودة ذات الزينة والجمال.. ويوجب الشكر والحمد له بنعمه التي لا تحصى ذات اللذة والنفاسة.. ويشوق الخلق إلى

العبادة نحو ربوبيته بعبودية تتسم بالحب والامتنان والشكر إزاء هذه التربيـــة والإعاشـــة العامة، ذات الشفقة والحماية... ويدين الخلق إلى الإيمان والتسليم والانقياد والطاعة نحو ألوهيته التي يظهرها بتبديل المواسم، وتكوير الليل على النهار واختلافهما وأمثالها مـــن التصرفات العظيمة والإجراءات الجليلة والفعالية المدهشة والخلاقية الحكيمـــة.. ويظهـــر عدالته وحقانيته بحمايته دوما البر والأبرار وإزالته الشر والأشرار ومحقه الظالمين والمكذبين وإهلاكهم بنوازل سماوية. فلا جرم أن أحب مخلوق لدى ذلك المتستر بالغيب وأصـــدق عبد له هو من كان عاملا عملا خالصا لمقاصده المذكورة آنفا، ومن يحل السر الأعظم في خلق الكون ويكشف لغزه، ومن يسعى دوما باسم خالقه ويستمد القوة منه ويستعينه وحده في كل شيء فينال المدد والتوفيق منه سبحانه. ومن ذا يكون هذا غـــير محمـــد القرشي صلى الله عليه وسلم.[31]

فهذه دلائل كبيرة مجتمعة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم في تبليغ الوحي وبيان الحقائق الإيمانية.

وفي التفاتة ذكية من الإمام النُورْسي ينظر إلى النبوة في سياقها الموضوعي المقصدي، ويؤكد من خلالها التوازن المعرفي في التعامل مع مثل هذه القضايا، وذلك لأن مفهـــوم المعجزة يتعدى ما هو شائع من ارتباطها بخرق العادة المادية الظاهرة. والواقع أن هذا ما هو إلا وجه من وجوهها، ومن أهم هذه الوجوه "القدوة الكاملة"، ومن خـــلال هـــذا الوجه يصحح ويعالج التشويش الذي أصاب طائفة ممن سماهم بالظاهريين. يقول: "إنه مما يشوش أفكار الظاهريين ..اعتقادهم أن دلائل صدق الأنبياء عليهم الســـلام محصـــورة ضمن خوارق العادات، واعتبارهم أن جميع أحوال رسولنا الكريم صلى الله عليه وســـلم وحركاته – أو معظمها- لابد أن تكون خارقة. وهذا ما لا يسمح به الواقع، لـــذا لا يستقيم ولا يصلح لهم ما يتخيلون. إذ أن اعتقادا كهذا غفلة عظيمة عن ســـر الحكمـــة الإلهية في الوجود، وعن تسليم الأنبياء عليهم السلام مقاليد الانقياد إلى قوانين الله الجارية في العالم. نعم! إن كل حال من أحواله صلى الله عليه وسلم وكل حركة من حركاتـــه دليل على صدقه، وتشهد على تمسكه بالحق، مع أنه يتبع السنن الإلهية وينقاد إليهـــا..ثم إن إظهار الخوارق ما هو إلا لتصديق النبوة، والتصديق يحصل على أكمل وجه بمعجزاته الظاهرة، فإذا زادت عن الحاجة، فإما أن تكون عبثا.. أو منافية لسر التكليف – الـــذي هو امتحان في الأمور النظرية دون البديهيات أو ما يقرب منها حيث يتساوى الأدنى مع الأعلى- أو تكون مخالفة للتسليم والانقياد لجريان الحكمة".[32]

وهكذا ينتصب الوحي مصدرا أصيلا ضروريا في التوصل إلى الحقائق، وتنتصب النبوة طريقا لتوصيل هذا الوحي وتبليغه ضمن الصورة النموذجية للإنسان. ولأن النُوْرْسي انطلق من دافع المنافحة عن أصول الإسلام في مواجهة الهجمات المضللة، فقد بحث في مصدر الوحي متمثلا في القرآن الكريم، وبحث في النبوة متمثلة في سنته الشريفة وسيرته العطرة. هذه هي المصادر التي هي أصح الوثائق في العالم على الإطلاق، ولذلك رفعها الإمام النُوْرْسي شعارا في التحدي، واستند إليها في مقارعة المخالفين.

القرآن الكريم: مصدرا ومنهجا :

تعريف القرآن:

"فإن قلت ما هو القرآن؟ قيل لك هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم. وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السموات والأرض. وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المضمرة في سطور الحادثات. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة. وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية. وكذا هو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي. وكذا هو خريطة للعالم الأخروي. وكذا هو قول شارح وتفسير واضح وبرهان قاطع وترجمان ساطع لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه. وكذا هو مرب للعالم الإنساني. وكالماء وكالضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد المهدي إلى ما خلق البشر له. وكذا هو للإنسان كما أنه كتاب شريعة كذلك كتاب حكمة. وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما أنه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر. وكما أنه كتاب واحد لكن فيه كتب كثيرة في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية، كذلك هو كمنزل مقدس مشحون بالكتب والرسائل، حتى إنه قد أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصديقين ومن العرفاء والمحققين رسالة لائقة لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره حتى كأنه مجموعة الرسائل"[33].

وأنت تلاحظ – بتأملك في هذا التعريف كيف ركز الأستاذ فيه على بيان المعارف العظيمة الكثيرة التي يقدمها القرآن الكريم للإنسان.

إعجاز القرآن :

إن اعتبار القرآن الكريم أهم مصادر المعرفة يستند إلى طبيعته الربانية، وهذه العلاقة ثابتة بدلائل الإعجاز التي تجعل من معانيه حقائق قيمة ترتقي بالإنسان في درجات اليقين.

"ويتجلى إعجاز القرآن – عند الإمام النُوْرْسي – في:

– "سلاسة لسانه من فصاحة اللفظ..

–وكونه إخبارا سماويا عن الغيوب في الحقائق الغيبية الكونية والأسرار الغيبية للحقائق الإلهية..

–وامتلاكه لجامعية خارقة من خمس جهات: لفظه ومعناه وأحكامه وعلمه ومقاصده..

–وأن شبابيته الخارقة شاملة محيطة وأنسيته جعلته محبوب الإنس والجان وذلك بالتنـزلات الإلهية إلى عقول البشر لتأنيس الأذهان والمتنوعة بتنوع أساليب التنـزيل.

– ومجيء نقوله وأخباره في أسلوب بديع غزير المعاني، فينقل النقاط الأساس للأخبار الصادقة كالشاهد الحاضر لها..

–وكونه مؤسس دين الإسلام ومتضمنه..ولن تجد مثل الإسلام إن تحريت الزمان والمكان..

– وأن الأنوار الستة المفاضة من هذه المنابع الستة يمتزج بعضها مع بعض فيصدر شعاع حسن فائق، ويتولد حدس ذهني، وهو الوسيلة النورانية. والذي يصدر عن هذا: ذوق يدرك به الإعجاز. لساننا يعجز عن التعبير عنه والفكر يقصر دونه.." [34].

طريقة القرآن في المعرفة :

يتميز الإمام النُوْرْسي باعتماده القرآن الكريم منهجا متكاملا في المعرفة، ولا يتعامل معه باعتباره مصدرا فحسب، ويمكن رسم بعض عناصر هذا المنهج في ما يلي:

1– إشاعة المعرفة وخطاب كل طبقة من البشر بما يناسبهم: "إن آياته مع كمال الانسجام وغاية الارتباط وتمام الاتصال بينها يتيسر لكل أحد أن يأخذ من السور المتعددة آيات متفرقة لهدايته وشفائه كما أخذها عموم أهل المشارب والعلوم"[35].

2– ضرب الأمثال : "فبمنظار "ضرب الأمثال" قد أظهرت الحقائق البعيدة جداً أنها قريبة جداً، وبوحدة الموضوع في ضرب الأمثال قد جمعت أكثر المسائل تشتتا وتفرقا، وبسلم ضرب الأمثال" قد توصل إلى أسمى الحقائق وأعلاها بسهولة ويسر. ومن نافذة "ضرب الأمثال" قد حصل اليقين الإيماني بحقائق الغيب وأسس الإسلام مما يقرب من

الشهود، فاضطر الخيال إلى الاستسلام، وأرغم الوهم والعقل إلى الرضوخ، بل النفس والهوى، كما اضطر الشيطان إلى إلقاء السلاح"[36].

وكأني بالإمام النُورْسي – وهو يخط هذه المكتوبات – يلوح للقارئ بالشعار العظيم: "**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ**" (العنكبوت: 43). "فضرب الأمثال" –كما يقرره الدرس المصطلحي– ضميمة إضافية تشكل بتركيبها هذا مصطلحا قرآنياً مكتنزا بالدلالات، حتى إنه ليمكن اعتباره محورا في منهج القرآن وطريقته في البيان. ولا أدل على ذلك من تلك الخصائص التي اقترنت بهذا المصطلح في الفقرة السابقة: وهي على التوالي:

أ– أن "ضرب الأمثال" منظار يخترق الأبعاد – في مختلف الاتجاهات – ويتجاوز الحدود والحواجز حتى يصل إلى الحقائق فيأتي بها حتى يضعها أمام الناظر ليس بينها وبينه حجاب ولا ضباب!!

ب– أن "ضرب الأمثال" وحدة تصل بين جميع الكائنات الموجودات، وما ينتج عن تفاعلها من مسائل وقضايا، يخيط رفيع يشدها إلى أصولها وكلياتها وسننها، حتى تنتهي إلى الله جل جلاله (**ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت**) [الملك: 3] (**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**) [الأنبياء: 22] (**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**) [النساء: 82].

ج – أن "ضرب الأمثال" سلم، ينسجم مع الطبيعة البشرية التي تأنس بالتدرج، وتنفر من الطفرات وحرق المراحل، فالقرآن الكريم يرتقي بالإنسان في مدارج المعرفة حتى يصل إلى الحقائق الكونية الكبرى بسهولة ويسر، حتى قال بعض الحكماء" "وإن المؤمن البسيط في أمة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله لا إله إلا الله يبدأ من حيث انتهى إليه الفيلسوف هذا الذي أفنى عمره كله للتعرف على مبدع الكون".

د– أن "ضرب الأمثال" نافذة. نطل – عبرها – من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، فهذا القبس من نور الله جل جلاله، الذي أنزله على خلقه وأذن لهم بعلمه هو حبل الله المتين الذي يصلنا بأقوى درجات اليقين بعالم الغيب، وقد أفاض القرآن الكريم في وصف هذا العالم، وصرّف القول فيه حتى صار مشهودا!!!

هذه الخصائص الأربعة منفردة ومجتمعة من أهم ما يميز منهج القرآن في المعرفة، وهي تجمع بين القوة والتساند والتدرج والتواصل والشمول.

وإذا كان هذا المنهج يوصل إلى أعظم الحقائق فهو يوصل إلى ما دونها بالضرورة، أو يسهل الوصول إليها، ويهيئ الظروف المناسبة لبلوغها.

والواقع أن القرآن مستكمل للأدلة القاطعة بما صرف فيه من الأمثال، وإنما الإشكال هو في الإنسان "**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً**" [الكهف:54]

3- تفصيل القول قصد البيان الشافي. ويعبر عنه بمصطلح التكرار منبها على فوائده المنهجية في تبليغ المعلومات وتبيان الحقائق وتحصيل المعارف.[37]

4- ومن ملامح الدقة في التوجيه والقصد في التبليغ: "أن ذكر القرآن لبعض الغايات الراجعة إلى الإنسان إنما هو للإخطار لا للانحصار. أي لتوجيه نظره إلى الدقة في فوائد نظام ذلك الشيء ذي الغاية وفي انتظامه الدال على أسماء صانعه"[38].

5- ومن مميزات القرآن الكريم أنه يحتوي على المعاني الكلية التي تتضمن مراتب كثيرة[39].

6- بل إن الإمام النُورْسي من شدة تأمله في علاقة القرآن بالكون، وبالأرض بالتحديد أي المجال الذي يسكن فيه الإنسان، يكشف عن اتصال روحي معرفي (عقلاني) بين القرآن والأرض.[40]

7- ومن مميزاته تمزيقه لحجاب الألفة: "اعلم أن أكثر معلومات البشر الأرضية ومسلماته، بل بديهياته مبنية على الألفة، وهي مفروشة على الجهل المركب. ففي الأساس فساد أي فساد. فلهذا توجه الآيات أنظار البشر إلى العاديات المألوفة وتثقب نجوم القرآن حجاب الألفة ويأخذ بأذن البشر ويميل رأسه ويريه ما تحت الألفة من خوارق العادات في عين العاديات"[41].

إن القرآن الكريم بهذه الصفات والخصائص فصار – بحق وبجدارة – أستاذاً يعلم البشرية ويبلغ إليها المعارف والحقائق بأصح ما يكون وأسهله وأدقه وأشمله. وتبقى جميع النصوص والمناهج البشرية عاجزة عن بلوغ هذا المستوى. ومما يؤكد هذا ويجليه تلك المقارنات التي أجراها النُورْسي بين منهج القرآن في المعرفة وغيره من المناهج، سواء منها ما كان منتمياً إلى الدائرة الإسلامية، أو ما كان من إفرازات العقل الغربي. وقبل أن نورد نماذج من هذه المقارنات نود أن نسجل الملاحظات الهامة التالية.

إن الإمام النُورْسي ينطلق من القرآن ويستند إليه باعتباره علما مستقلا بنفسه، ومنهجا قائماً بذاته تام الأركان ومكتمل العناصر، والنظر إلى القرآن الكريم – بهذا الاعتبار– يفتح آفاقاً علمية ويكشف عن ميزان معرفي يمكن الاحتكام إليه. وهذا الاعتبار يختلف عن كثيراً عنه اعتبار القرآن الكريم مصدراً في المعرفة يرجع إليه عند الحاجة. ولا يخفى ما بين الاعتبارين من البون الشاسع.

وهذا لا يعني أن الاعتبار الأول يلغي الثاني، وإنما المقصود هو اعتمادهما معاً، على أن الأول آكد في الرتبة من الثاني.

إن نظر النُوْرْسي بهذا المستوى هو الذي أتاح له منازلة أقوى المـــدارس والمـــذاهب الفكرية الإسلامية وغير الإسلامية وكشف وجوه الخلل فيها، مجليا حقائق القرآن الكريم ساطعة صافية. "إن رسائل النور ليست كالمؤلفات الأخرى التي تستقي معلوماتها مـــن مصادر متعددة من العلوم والفنون، فلا مصدر لها سوى القرآن، ولا أستاذ لها إلا القرآن، ولا ترجع إلا إلى القرآن.. ولم يكن عند المؤلف أي كتاب أخر حين تأليفها، فهي ملهمة مباشرة من فيض القرآن الكريم، وتنـــزل من سماء القرآن ومن نجوم آياته الكريمة"[42].

بين القرآن العلوم الإسلامية :

علم الكلام والتصوف:

يقول:

(حقاً إن معرفة الله المستنبطة بدلائل علم الكلام ليست هي المعرفـــة الكاملـــة، ولا تورث الاطمئنان القلبي، في حين أن تلك المعرفة متى كانت على نهج القـــرآن الكـــريم المعجز، تصبح معرفة تامة وتكسب الاطمئنان الكامل في القلب).. ثم إن معرفة الله التي استقاها الرازي من علم الكلام كما تبدو ناقصة وقاصرة في نظر ابن عربي، فإن المعرفـــة الناتجة عن طريق التصوف أيضا ناقصة ومبتورة بالنسبة نفسها أمام المعرفة التي اســـتقاها ورثة الأنبياء من القرآن الكريم مباشرة)، ذلك لأن ابن عربي يقول: (لا موجود إلا هو)، لأجل الحصول على الحضور القلبي الدائم، أمام الله سبحانه وتعالى حتى وصل به الأمـــر إلى إنكار وجود الكائنات.

أما الآخرون فلأجل الحصول على الحضور القلبي أيضاً قالوا: "لا مشهود إلا هـــو" وألقوا ستار النسيان المطلق على الكائنات واتخذوا طوراً عجيباً.

بينما المعرفة المستقاة من القرآن الكريم تمنح الحضور القلبي الدائم، فضلا عن أنهـــا لا تقضي على الكائنات بالعدم، ولا تسجنها في سجن النسيان المطلق، بل تنقـــذها مـــن الإهمال والعبثية، وتستخدمها في سبيل الله سبحانه، جاعلة من كل شيء مرآة تعكـــس المعرفة الإلهية وتفتح في كل شيء نافذة إلى المعرفة الإلهية.

... ولقد شبهنا – في كلمات أخرى من رسائل النور لبيان الفـــروق بـــين الـــذين يستلهمون نهجهم من القرآن الكريم – ذلك المنهج الأقوم – والذين يسلكون نهج علماء الكلام بمثال هو:

أنه لأجل الحصول على الماء، هناك من يأتي به بواسطة أنابيب من مكان بعيد يحفره في أسفل الجبال، وآخرون يجدون الماء أينما حفروا ويفجرونه أينما كانوا، فالأول سير في طريق وعر وطويل، والماء معرض فيه للانقطاع والشحة. بينما الذين هم أهل لحفر الآبار فإنهم يجدون الماء أينما حلوا دونما صعوبة ومتاعب.

فعلماء الكلام يقطعون سلسلة الأسباب بإثبات استحالة الدور والتسلسل في نهاية العالم ومن بعده يثبتون وجود واجب الوجود.

أما المنهج الحقيقي للقرآن الكريم فيجد الماء في كل مكان ويحفره أينما كان. فكل آية من آياته كعصا موسى تفجر الماء أينما ضربت، وتستقرئ كل شيء القاعدة الآتية:

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد.

ثم إن الإيمان لا يحصل بالعلم وحده، إذ هناك لطائف كثيرة للإنسان لها حظها من الإيمان، فكما أن الأكل إذا ما دخل المعدة ينقسم ويتوزع إلى مختلف العروق حسب كل عضو من الأعضاء، كذلك المسائل الإيمانية الآتية عن طريق العلم إذا ما دخلت معدة العقل والفهم، فإن كل لطيفة من لطائف الجسم – كالروح والقلب والسر والنفس وأمثالها – تأخذ منها وتمصها بحسب درجاتها. فإن فقدت لطيفة من اللطائف غذاءها المناسب، فالمعرفة إذن ناقصة مبتورة، وتظل تلك اللطيفة محرومة منها".[43].

يقدم النُوْرْسي قراءة نقدية "لنهج المعرفة" كما هو في علمِ الكلام جاعلاً من موقف ابن عربي من ذلك العلم ونقده لأحد أعلامه (الرازي) مدخلاً له، غير أنه يعود على ابن عربي نفسه بالنقد باعتباره نموذجا للمتصوفة الذين يمثلون طريقا آخر مختلفا تمام الاختلاف عن طريق المتكلمين.

فهو يأخذ على طريقة المتكلمين افتقارها إلى أمرين أساسيين:

التمام المعرفي.

الطمأنينة القلبية.

ويأخذ على طريقة المتصوفة غلوها في إنكار أو نسيان الكائنات سعيا منها إلى تحقيق الحضور القلبي الدائم. وهذه الطريقة – وإن حققت قدرا كبيرا من الأساس الثاني الذي هو طمأنينة القلب – إلا أنها فرطت في قدر كبير من تمام المعرفة.

والإمام النُوْرْسي في نقده لهاتين الطريقتين يستند إلى الوحي مسلطاً ضوءه الوهاج عليهما، ومستخلصا منه طريقة منهج القرآن الكريم الأقوم في المعرفة.

الفـــقه :

يلاحظ الإمام النُوْرْسي من خلال ر صده لتاريخ الفقه ظاهرة سلبية مفادها أن نظر العامة يتركز في الكتب الفقهية فحسب فلا ينتقل ذهنهم إلى القرآن الكريم إلا خيـــالا، ونادرا ما يتصورون قدسيته – من خلال نظرهم المنحصر – ومن هنا يعتاد الوجــدان التسيب ويتعود على الإهمال فينشأ الجمود." ومن هنا يرى أن "الكتب الفقهية ينبغي أن تكون شفافة لعرض القرآن الكريم وإظهاره، ولا تصبح حجابا دونه كما آلت إليـــه – بمرور الزمان – من جراء بعض المقلدين.[44].

إن ما أوردنا من نصوص لا يعني بحال رفضاً لمجمل العلوم الناشئة في تاريخ الإسلام، فقد أحال النُوْرْسي كثيراً على علماء الكلام والتصوف في معالجتهم لكل القضـــايا، إذ رأى فيها نقاشاً واسعاً واحتجاجاً قاطعاً وفوائد كثيرة مفيدة في بابها.

بين القرآن والفلسفة :

يقسم النُوْرْسي الفلسفة إلى نوعين: فلسفة ضارة أو سقيمة ، وفلسفة صائبة.[45]

"إن الفلسفة التي تهاجمها رسائل النور وتصفعها.. هي الفلسفة المضـــرة وحـــدها، وليست الفلسفة على إطلاقها، لأن قسما من الفلسفة التي تخدم الحيـــاة الاجتماعيـــة.. وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمهد السبل للرقي الصناعي، هي في وفاق ومصالحة مع القرآن الكريم، بل هي خادمة لحكمة القرآن ولا تعارضها، ولا يسعها ذلـــك؛ لـــذا لا تتصدى رسائل النور لهذا القسم من الفلسفة.

أما القسم الثاني من الفلسفة فكما أصبح وســيلة للتـــردي في الضـــلالة والإلحـــاد والسقوط في هاوية المستنقع الآسن للفلسفة الطبيعية، فإنه يسوق الإنســـان إلى الغلفـــة والضلالة بالسفاهة واللهو. وحيث إنه يعارض بخوارقه التي هي كالسحر الحقائق المعجزة للقرآن الكريم، فإن رسائل النور تتصدى لهذا القسم الضال من الفلسفة في أغلب أجزائها وذلك بنصبها موازين دقيقة، ودساتير رصينة، وبعقدها موازنات ومقايســـات معـــززة ببراهين دامغة. فتصفعها بصفعاتها الشديدة، في حين أنها لا تمس القسم السديد النافع من الفلسفة"[46].

"نعم أقول: إن الحكمة (الفلسفة) لأنها خير كثير مع تضمنها الشر، إلا أنـــه شـــر جزئي. ومن الأصول المسلمة أنه يلزم اختيار أهون الشرين.. نعم، إن الحكمة القديمـــة (الفلسفة القديمة) خيرها قليل، خرافاتها كثيرة، حتى نهى السلف – إلى حد ما – عنـــها حيث إن الأذهان كانت غير مستعدة.. بينما الفلسفة الحاضرة فخيرها كثير – من جهة المادة – بالنسبة للقديمة وكذبها وباطلها قليل. والأفكار حرة في الوقت الحاضر، والمعرفة

مسيطرة على الجميع. وفي الحقيقة لا بد أن يكون لكل زمان حكمـــه"[47]. إن الإمـــام النُوْرْسي بكلامه هذا يقدم العقلانية بأجمل صورها، ويجعل الحق والحكمة هدفا ساميا.

ثانيا: الكون :

هذا الكون الممتد أمام الإنسان وخلفه وتحته وفوقه وعن يمينه وشماله في رؤية الإمـــام النُوْرْسي له وجود قائم متحقق، وهيئة منتظمة في غاية الدقة والكمال والجمال.

وهو بهذا المعنى يعتبر "قرآناً منظوراً"[48]. أي مصدرا مهما للمعرفة، وخاصة حين يقرأ في ضوء الكتاب المسطور، فهذا الكتاب بالنسبة لذلك بمثابة الدليل المفسر. ""وكثيرا ما يبين النُوْرْسي أن كل علم من مئات العلوم التي توصل الإنسان إلى كشفها بما يملك من شعور يعرّف تجليا واحدا من تجليات اسم "الحكم" فهذه الكائنات ينظر إليها علم الطب والصيدلة والكيمياء والهندسة والزراعة والتجارة وعلم الإعاشة وعلم التغذية بما يحقـــق المصلحة للبشر.. وكذا لو سئل علم العسكرية عن هذه الأرض، وعلم الكهرباء؛ لنظروا إليها من الزاوية نفسها. إن كل علم من مئات العلوم يشهد قطعا أن هذا الكون قد زين بحكم ومصالح شتى ضمن انتظام كامل لا نقص فيه، وأن تلك الأنظمة البديعة والحكـــم السامية النابعة من تلك الحكمة المعجزة المحيطة بالكون قد أدرجت بمقياس أصغر حتى في أصغر كائن حي وفي أصغر بذرة. وهذا يعني أن العلاقة القائمة بين العلـــوم وغاياتهـــا ووحدة نظامها وفلسفتها علاقة تلازم وتكامل، فكما أن العلوم تشهد بوجود الخـــالق المدبر الواحد الأحد، كذلك تكون هذه الوحدانية منتظمة في هـــذه العلـــوم، فتكـــون كالروح الذي يسري فيها جميعا. وكما تؤدي هذه العلوم إلى معرفة الخالق، كذلك فإن معرفة الخالق تتطلب السير في الأرض والنظر في الكون والأنفس؛ لاكتشـــاف العلـــوم ومعرفة نظامها وطبيعتها، فإنما يخشى الله من عباده العلماء. وهذا كله يشير بوضوح لكل ذي عينين إلى أهمية الوحي وضرورته القاطعة في قيام فلسفة العلـــوم وأهـــدافها علـــى توجيهاته وإرشاداته، وعلى التصورات التي بناها عن هذا الوجود بأكمله"[49].

إن هذه الصورة الحقيقية النموذجية التي يكشفها النُوْرْسي في العلاقة الوثيقة في القرآن الكريم والكون تمثيل الميزان الذي في ضوءه نظر إلى تقدم الغرب وتأخر المسلمين وحاول أن يكشف عن السر في ذلك. [50].

إن تلاحق الأفكار إذا أخذ سيره الطبيعي وتوفرت له الشروط يجعل التقدم في العلوم والارتقاء في المدينة أمراً طبيعياً" فقد يكون بديهيا ما هو نظري في الماضي. هكذا تحقق،

ففي العالم ميل للاستكمال وبه يتبع العالم قانون التكامل. ولأن الإنسان من ثمرات العالم وأجزائه ففيه كذلك ميل الترقي المستمد من الميل للاستكمال. وميل الترقي ينمو مستمدا من تلاحق الأفكار الذي ينبسط بتكمل المبادئ واكتمال الوسائل، وتكمل المبادئ يلقي – من صلب الخلقة – بذور علوم الأكوان ملقحا رحم الزمان التي تربي تلك البذور وتنبتها فتستوي بالتجارب المتعاقبة التدريجية"[51].

ومن هنا "فضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الحديثة، فبامتزاجها تتجلى الحقيقة"[52].

"لقد ظهر ميل شديد إلى التحري عن الدين الحق في أعماق كل إنسان فهو يبحث قبل كل شيء عن حقيقة الدين الحق لتنقذه من الموت الأبدي. ووضع العالم الحاضر خير شاهد على هذه الحقيقة.. وعلى هذا فإن المستقبل الذي لا حكم فيه إلا للعقل والعلم سوف يسوده حكم القرآن الذي تستند أحكامه إلى العقل والمنطق والبرهان".[53].

ويأسف الإمام النُوْرْسي إزاء انهيار العلم في ديار المسلمين رغم أنهم يملكون هذا المصدر العظيم، ويبين أن الخلل ناتج عن سوء الفهم، وسوء التعامل مع القرآن الكريم ومن هنا "فالصديق الجاهل يمكنه أن يضر الدين بمثل ما يضر به العدو"[54]. وقد تصرف "المغرمون بالظاهر إزاء كروية الأرض مثلا". تصرفات جنونية كمن يريد أن يجعل النهار ليلا بإغماض العين.. وفي ظنهم كأن الذي يحكم بكروية الأرض يخالف كثيرا من مسائل الدين. فتذرعوا بهذا وافتروا فرية كبيرة"[55].

ومن هنا نقده أيضا لتعامل أمثال هؤلاء مع بعض المتشابهات التي وردت في نصوص الوحي والسنة المشرفة كحديث الثور والحوت[56].

وفي سياق كشفه عن العوائق التي أدت بالمسلمين إلى ما هم عليه؛ يشير النُوْرْسي إلى مشكلة المجاز حين "يقع من يد العلم إلى يد الجهل فينقلب إلى حقيقة، ويفتح الباب للخرافات. إذ المجازات إذا ما اقتطفتهما يسار الجهل المظلم من يمين العلم المنور أو استمرتا انقلبتا إلى "حقيقة" .. إن كثيرا من الكلمات أو الحكايات أو الخيالات أو المعاني التي كان السلف يتذوقونها لم توافق الرغبات الشابة لدى الخلف لأنها غدت عجوزا لا زينة لها.. ولهذا لا ينبغي الحكم على أي شيء بظاهره. إذ من شأن المحقق سبر غور الموضوع والتجرد من المؤثرات الزمانية والغوص في أعماق الماضي ووزن الأمور بموازين المنطق ووجدان منبع كل شيء ومصدره"[57].

ثالثا:العقل:

إن من البديهيات عند الإمام النُوْرْسي اعتبار مصدرا في المعرفة. ورسائل النور تكتنز بمدح العقل وكونه آية من آيات الله تعالى، وعلامة على تميز الإنسان. ومن يقرر الإمام النُوْرْسي أنه " ما جعل الإسلام يتجلى دوما، وتنكشف حقائقه وتنبسط بنسبة انبساط أفكار البشر إلا تأسسه على الحقيقة وتقلده البرهان ومشاورته العقل واعتلاؤه عرش الحقيقة ومطابقته دساتير الحكمة المتسلسلة من الأزل إلى الأبد ومحاكاته لها. ألا يشاهد كيف يحيل القرآن الكريم في فواتح أكثر الآيات وخواتمها البشر إلى مراجعة الوجدان واستشارة العقل بقوله تعالى: "أفلا ينظرون" و"فانظروا" و"أفلا يتدبرون" و"أفلا تتذكرون" و"تتفكروا" و"ما يشعرون" و"يعقلون" و"لا يعقلون" و"يعلمون" و"فاعتبروا يا أولي الأبصار" وأنا أقول أيضا: فاعتبروا يا أولي الأبصار"[58].

بل إن "من الأصول المقررة أنه إذا تعارض العقل والنقل يعد العقل أصلا ويؤول النقل، ولكن ينبغي لذلك العقل أن يكون عقلا حقا"[59].

رابعا: الإلهام:

"إن الإلهامات الصادقة مع أنها تتشابه – من جهة – مع الوحي، من حيث إنها نوع من المكالمة الربانية إلا أن هناك فرقين:

أولهما: أن معظم الوحي الذي هو أسمى وأعلى من الإلهام بكثير إنما يتم بوساطة الملائكة، بينما أغلب الإلهام يتم دون وساطة..

الثاني: أن الوحي صاف ودون ظل، خاص للخواص. أما الإلهام ففيه ظل واختلاط ألوان. وهو عام وله أشكال متنوعة ومتفاوتة جدا؛ كإلهامات الملائكة وإلهامات الإنسان وإلهامات الحيوانات، وهي بأنواعها المختلفة وأشكالها المتباينة جدا تبين مدى سعة وكثرة الكلمات الربانية."[60].

ويرى الإمام النُوْرْسي أن في الإنسان استعدادا فطريا للتعامل مع الإلهام باعتباره مصدرا في المعرفة مثله مثل باقي المصادر (الوحي/ الكون..) التي يتعامل معها ويستفيد منها بما زود به من العقل والحواس واللطائف. ولذلك يسمي الإلهام بأنه الحدس المضاعف، والحدس هو سرعة انتقال في الفهم[61]. "والإنسان لا تقتصر حواسه الظاهرة والباطنة على الحواس الخمسة المعروفة.. وإنما له نوافذ كثيرة مطلة إلى عالم الغيب، فله حواس كثيرة غير معلومة.." ولذلك فإن "الوجدان لا ينسى الخالق مهما عطل العقل نفسه وأهمل عمله، بل حتى لو أنكر نفسه فالوجدان يبصر الخالق ويراه، ويتأمل فيه ويتوجه إليه"[62].

خـــاتمة :

خلص الباحث بعد رحلته المتواضعة مع الإمام النُوْرْسي في تأملاته حـــول مفهـــوم المعرفة إلى أن رسائل النور تنطوي على رؤية متكاملة ونظرية تامة في المعرفة، مســـتوعبة لأصولها وغاياتها وطرقها ومصادرها وأقسامها وغير ذلك من مباحثها. وقـــد توصـــل الأستاذ النُوْرْسي إلى ذلك بسر استناده إلى القرآن الكريم باعتباره المنهج الأقوم. والواقع أن مادة البحث غزيرة وعميقة جداً، تفتح آفاقاً فسيحة في قضية المعرفة جملة، نسأل الله تعالى أن ييسر الأسباب لمتابعة الطريق في كشفها. ويود الباحث أن يسجل التوصـــيات التالية:

إعادة تكشيف وفهرسة "رسائل النور" بتفصيل وتدقيق أكثر لتسهيل الوصـــول إلى المصطلحات والمفاهيم والنصوص والقواعد والفوائد وغيرها. اقتراح تســـجيل رســـائل جامعية للبحث في المحاور والمفاهيم والقضايا الرئيسية التي تتضمنها رسائل النور.

إعداد معجم جامع للمصطلحات المعرفة عند الأستاذ النُوْرْسي.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

مصادر ومراجع :

تفسير الرازي المسمى مفاتيح الغيب.

كليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النُوْرْسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي.

مجلة الأمة القطرية، السنة الثانية، العدد: 19 / 1402 – 1982.

مجلة المسلم المعاصر، العدد: 83/ 1997.

الهوامش:

1 مجلة الأمة س2 ع19 رجب 1402/ مايو 1982 ص: 47.

2 صيقل الإسلام:22.

3 إسلامية المعرفة في ضوء إعجاز القرآن كما يصورها النُوْرْسي/ د. زياد الداغمين/ المسلم المعاصـــر، عدد 83، 1997، ص51.

4 المكتوبات 289.

5 تفسير الرازي130/1.

6 المثنوي العربي: 105.

7 نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة/ راجح عبد الحميد الكردي، منشـــورات المعهـــد العـــالمي للفكـــر الإسلامي ط1، 1412– 1992 ص 88

8 إشارات الإعجاز 241.

9 الكلمات 290.
10 اللمعات: 90- 91.
11 نفسه:127.
12 نفسه: 593- 594.
13 المثنوي العربي121.
14 اللمعات171/ 207.
15 نفسه: 207.
16 المكتوبات 424 – 426.
17 المثنوي العربي 338.
18 اللمعات: 174.
19 الشعاعات273.
20 إشارات الإعجاز 196.
21 الكلمات 67.
22 الشعاعات 135.
23 اللمعات 296- 297.
24 نفسه: 88-89.
25 نفسه: 115- 117.
26 صيقل الإسلام:33.
27 نفسه: 65- 66.
28 الشعاعات: 162.
29 الكلمات 118- 119.
30 صيقل الإسلام: 136.
31 الشعاعات169- 171.
32 صيقل الإسلام 65- 66.
33 المثنوي العربي 69- 70.
34 الملاحق: 183- 186.
35 المثنوي العربي249- 281 - 321، صيقل الإسلام 30- 59.
36 المكتوبات487.
37 انظر اللمعات 196- 420 والمثنوي العربي 70.
38 المثنوي العربي 357.
39 الشعاعات 354.
40 نفسه 120.
41 المثنوي العربي324.
42 الملاحق: 221.
43 المكتوبات 424 – 426.
44 صيقل الإسلام 348.
45 المثنوي العربي: 338 وصيقل الإسلام 68.
46 الملاحق: 286 – 287.
47 صيقل الإسلام: 41.
48 اللمعات 530.

49 إسلامية المعرفة في ضوء إعجاز القرآن كما يصورها النُورْسي/ د. زياد الداغمين/ المسلم المعاصـــر، عدد 83، 1997، ص51.
50 انظر صيقل الإسلام: 367 – 369.
51 نفسه: 32.
52 نفسه: 428.
53 نفسه: 494- 495.
54 نفسه: 65.
55 نفسه: 64 – 65 - 70 – 71.
56 نفسه: 73 – والملاحق 129 واللمعات: 138.
57 نفسه: 40.
58 نفسه: 27.
59 نفسه: 52.
60 الشعاعات 163- 164.
61 المثنوي العربي: 431.
62 نفسه: 431.